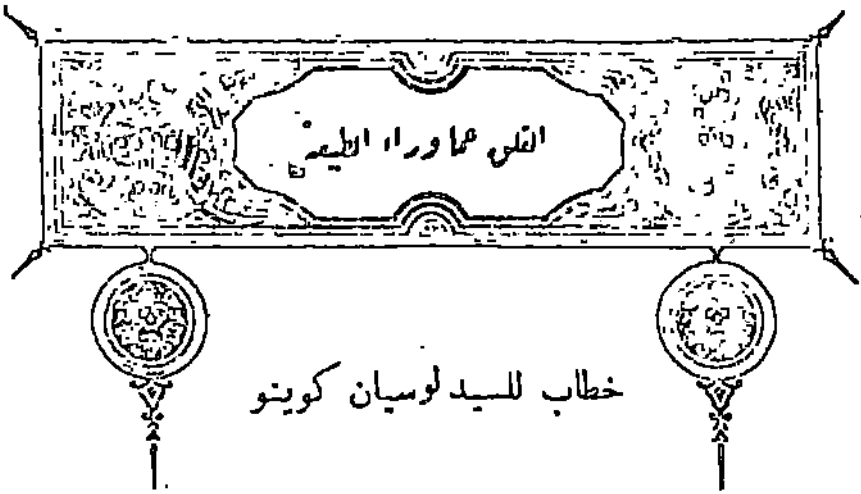

خطاب للسيد لوسيان كوينو

ان السيد لوسيان كوينو ، استاذ علم الحيوان في جامعة نانسي ، وأحد الاعضاء المراسلين في المجمع العلمي الفرنسوي (Institut) ، يُعدّ من اشهر علماء الحيَوانيات (biologie) في العصر الحاضر . فلا عجب اذا ان اهتمّت البيئات العلمية المختلفة بذاك الخطاب الممتع الذي القاه في اكادمية ستانيسلاس (نانسي) في ٢٤ ايار الفائت ؛ ولا عجب ان تراجعت اصداء تصريحاته في اندية العلوم العصرية ، وقد برهنت على ان العلم السطحي القريب من الادعاء ، قد ينحرف عن مبادئ الدين وقد يهزأ بالايمان فيطرح جانباً كل ما يقلقه من الخواطر عمّا وراء الطبيعة ، ويكتفي بعالمه المادّي مجالًا ضيّقاً لافكاره المقيدة بالحسيّات حتى لا يمكنها الارتفاع الى ما وراء المادّة . امّا العلم الحقيقي الذي يقوم به ارباب بكل اخلاص ، فلا يسمه الّا الاقرار بتلك القوة السامية غير المنظورة المنظّمة لمبادئ الطبيعة كلها ، السائنة القوانين لظواهرها المختلفة ، المسيّرة جميع قواها حسب رسم واحد . اجل ان العلم الحقيقي لا يسمه الّا الخضوع والانحناء امام علّة العلل ، امام خالق البرايا جمعاء ، امام « الحقيقة الازلية » ، امام الله .

هذا ما توصّل اليه العالم الحيوي الشهير ، وذلك بالسير بكل اخلاص على طريقته العلمية الوضعية البحتة . وانه ليطول بنا المجال اذا اردنا تعريب خطابه

بكامله ، وهو يبلغ العشرين صفحة بقطع « المشرق »[1] فنكتفي بتحليله ، ونختم بتعريب خاتمته البليغة الشائقة.

بدأ السيد كوينو بتحقّق ذاك الميل الفطري الذي ينمو في الانسان ، وقد تنبّهت افكاره ، ودفعه الفضول الى الرغبة في البحث عما يجاوره ، فراح يفكّر حائرًا مفتّشاً عن معنى كيانه ، وكيان هذا العالم الذي يجرّه في لانهاية المكان والزمان. وبعد ان برهن ان إنكار كلّ ما هو خارج عن المادّة ، الذي قام به ردحاً من الزمن بعض العلماء العاجزين عن شرح هذا الميل الفطري ، لم يعد اليوم ليشفي غليلاً ، اخذ يسرد الاسس التي يضعها الانسان ، بواسطة عقله وعلوم عصره ، فيبني عليها آراءه في هذا الكون . امّا اول تلك الاسس فهو مبدأ السببية ، او العلة والمعلول ، الناتج عن الاختبار اليومي والذي تُشيّد عليه جميع العلوم البشرية . ومن ثمّ ذهب الخطيب يعدّد الامثال على هذا المبدأ ونتائجه في مختلف العلوم من فلكية ، وجيلوجية ، وطبيعيّة ، وكيميّة ، مشيراً الى كيف ينعت العلماء هذا المبدأ بقولهم انّ كل مظهر من مظاهر الطبيعة ، مهما كان غريبا ونادراً ، فهو مقدّر ، لا يمكنه الّا ان يكون معلولاً صادراً عن علّة طبيعية واضحة او خفيـة ، بسيطة او مركّبة . وقد نال بقوله هذا من « الفقراء » والوسطاء ، ومن على شاكلتهم من سائر المشعوذين. اما الصدفة فلا معنى لها ، في نظام الطبيعة الجبري ، سوى انها ظاهرة خاصّة تكثر فيها العلل ، او تدقّ ، حتى لا يمكننا تحليلها في الوقت الحاضر ، ولكنه يمكننا توقع نتائجها بما نجريه من الاحصائيات.

على هذه الكرة الأرضيّة ، في هذا الكون الطبيعي المادّي المقيّد بنظام جبري لا مندوحة له عن اتباعه ، ظهر في احد الايام شيء جديد : كائنٌ حي. وهنا تبسّط الخطيب في صِغَر هذا الكائن الأولي وقِدَمه ، وفي كيفية شرح ظهور الحياة في الكون ، فذكر النظرية القائلة ان الحياة هبطت على عالمنا من عالم آخر (panspermie) ، والنظرية القائلة ان الحياة ظهرت فجأةً ودفعةً واحدة

---

١) نشر الخطاب بنصّه الكامل في مجلة « الباحث » الفرنسوية
Etudes, 20 *Octobre* 1928 p. 129-143

(génération spontanée) . ولكن مهما يكن من طريقة وصول الحياة الى الأرض ، فان الحياة وُجدت عليها من زمن طويل ، وتفرّعت مظاهرها من النباتات العجيبة ، والحيوانات المختلفة ، يكمّلها كائن جديد ظهر مؤخراً ، يُعرف بالانسان ، وهو حيوان شاعر بما في ذاته ، يصنع الآلات ، ويفكّر ، ويُعبّر عن أفكاره بواسطة الكلام.

وهنا لاحظ السيد كوينو اننا لو بقينا تابعين نظرية الجبرية التي تبعناها في العالم المادّي ، للزمنا ان نرى في اول كائن حيّ مجموعاً من الذرّات الكيميية تخضع مظاهرها ومفاعيلها لذاك النظام المقدّر كما تخضع لـه تبلوُرات حجر الكوارتز مثلاً . ولزمنا ان نقدّر ايضاً جميع مآتي الخلائق الحيّة ، واعمال الانسان وتمابيره وافكاره.

ثم بعد ان ذكر كل ما يمكن استخلاصه من نتائج هـذا النظام الجبري المُطلق ، بيّن مناقضتها للواقع ، مشيراً الى ان في الانسان عاطفةً لا تقاوم تدفعه الى التفكّر ان تلك المظاهر الحسيّة البـادية في الطبيعة ، والظاهرة بواسطة الاختبارات ، ليست كل الحقيقة في الكون ، وان وراء هذه الدريئة الماديّة شيئاً آخر يسمو عن المادّة . وعليه فان الانسان دُفع منذ القديم الى التشوّف الى ما وراء هذا الحجاب الطبيعي الكثيف.ولم يكن العلم ، الذي يبسط سلطانه يوماً فيوماً على الاشياء ، لينتقع غلّته . بل بالعكس فان العلم يزيد ، بما يُثيره كلّ يوم من الأسرار ، تعطّشَ الانسان الى العدالة ، ورغبتـه في الطمأنينة والسلام ، وحاجته الى المعرفة.وبالاختصار فان الانسان ، مهما صنع ، فلا يزال يراوده القلق عمّا وراء الطبيعة.

***

ولكن قد يقول بعض العلماء من الوضعيين او الماديين ان هذا القلق عمّا وراء الطبيعة الذي نراه في الانسان لا يثبت على اسّ علمي ؛ بل هو نتيجة التربية غير الوضعية ، او التنشئة التي تُقِّف بواسطتها بعيداً عن العلم ، او هو نتيجة العوامل الوراثية.ولهذا فان السيد كوينو في اثبات نظريته لم يطلب الايضاحات

من الانسان نفسه ، ولم يستشهد باقوال احد من الناس ، بل طلب الايضاح من علم الحيويات ، وتكلّم كعالم حيوي. فبحث في ثلاث نقاط ، هذا ملخّصها:

النقطة الاولى : ان اصعب ما يظهر في تحديد الكون ، على الطريقة الوضعية المادّية ، هي مسألة الحياة وكلّ ما يخصّ الحياة . فانها لا تقع تحت محدّدات العلم ، ومن الصعب شرحها بواسطة مآتي المختبَرات المختلفة . لأن في الكائن الحي ، مهما كان حجمه ودرجة رقيه في سلّم الحيويّات ، شيئاً غير الذرّات الطبيعية والكيميية . وقد يمكن العلماء ان يحقّقوا بطرقهم العصرية كلّ مركّبات الكائن الحيّ من حيث المادّة ، ولكنهم يولّدون كائناً جامداً ، اذ تنقصهم دائماً تلك «الشرارة» التي يسمّونها الحياة . فينتج اذاً ان من اللازم الاقرار بان الحياة اسمى من المادّة بما لا يُقاس فهي ترتّب اجزاءها وتسيطر عليها . وبما انه لا يمكننا القول بنظرية هبوط جرثومة الحياة على عالمنا من عالم آخر (panspermie) لأن هذه النظرية لا تحلّ المسألة بل تنقلها من نقطة الى اخرى ، فلا مندوحة عن الاقرار بان الحياة بدأت على الأرض بتأثير قوة من وراء الطبيعة .

النقطة الثانية : نتحقّق ان الانسان هو الوحيد بين الحيوانات الذي يمكنه عمل الآلات . وعمل الآلة يستدعي عقلاً مفكّراً يقرّر غاية الآلة التي يصنعها . والحال اننا نرى في اجسام الحيوانات آلات متعدّدة تشابه الآلات التي يخترعها الناس ، ولكنها تفوقها دقّة وترتيباً (وهنا يعدّد الخطيب الآلات الظاهرة في تكوين الحيوانات) فاذا شرحنا وجود هذه الآلات بالعلل الطبيعية ، لا نحلّ المسألة بكاملها . فان الطبيعة تدخل دون شكّ في تركيب الآلات التي يخترعها البشر ؛ ولكنها لا تكفي لشرح وجود عضو في حيوان مثلاً . وهو امرٌ شعر بـه داروين فكان يردّد: «ان مسألة ولادة العين تسبّب لي الحمّى» وذلك لعجزه عن شرح وجودها بالاسباب الطبيعية . فحتى يمكننا ، والحالة هذه ، فهم كل ما نراه من الآلات العجيبة في تكوين اجهزة الحيوان ، يجب علينا دون تردّد ان نقرّ بان وراء علل الطبيعة الثانوية التي يدرسها العلماء ، عاملاً اعلى يتدخّل في الكون من وراء الطبيعة فيسيّر جميع هذه المخلوقات المتنوّعة الى غاية مفيدة .

وان هذا العامل قد تختلف اسماؤه بين الفلاسفة ولكنهم يجمعون بجملتهم على تحقق تأثيره.

في النقطة الثالثة، ينتقل الخطيب من هذا الموضوع البسيط الى نظرة عامّة شاملة. فيقوده ذلك الى نتيجة كالنتيجة السابقة، اي الى الاقرار بوجود عامل سام دبّر هذه الآلة العظيمة التي هي العالم، ووضع لها نظاماً تسير عليه بكل دقة الى غايتها، لا فرق فيها بين الجماد والنبات والحيوان والانسان. ثم يختم خطابه بهذا القول الشائق:

«وبالاختصار فان الكون موجود دائم. كلّ شيء فيه يتغيّر؛ ولكن، على الرغم من الشرّ الطبيعي والشر الادبي، كلّ شيء يتنظّم ويستمرّ. وان مظهر هذا الاستمرار في النظام، وفي الارتقاء العامّ، يبدو لي اعجوبة الاعاجيب.

«فاذا اعتبرنا ان حالة العالم، في مدة مفروضة من الزمن، نتجت عن تناسق غير مقصود حصل صدفةً بين ذرّيرات النواة السديمية الأصلية، فاننا نرى من غير المعقول ان هذا التناسق توصّل دائماً الى شيء ملتحم، منظّم، مرتّب على الرغم من كونه في تطوّر دائم. وقد كان يكفي الشيء البسيط حتى تقصم اللحمة بين الشمس والهواء والماء والارض والنبات والحيوان والانسان. ويتهافت كل شيء في اختلاط لا يوصف. لنفرض ان عدداً عديداً من حروف المطابع تراكمت في كومة، ولنفرض ان اعمى جاهلاً اتى فجعل يتناولها واحداً واحداً ويرتبها. فنقول ان درجة الاحتمال اضعف من ان يمكننا تصوّر خروج ابشودة كالالياذة من هذا الاختيار غير المقصود. والحال ان الكون يفوق الالياذة بما لا يُقاس تركيباً وتعقيداً. اذاً فمن المستحيل امكان نسبة توفقه بل توفقاته المتتابعة الى تصادُف حصل عرضاً بين الذرّيرات. على ان الذي لم يكن بالامكان، الذي لم يكن بالاحتمال، الذي لم يكن بالفكر ان يحصل، حصل! وها هو العالم الذي لم يكن بالامكان تصوّر وجوده يبدو لدينا كائناً موجوداً. فنتحقق انه كان في تلك النواة السديمية ترتيبٌ سابق فائق، كما

انه كان ترتيبٌ سابق في كومة الحروف المطبعية...

وهنا ليس بالامكان ان نتخلّص من التضادّ ، ونشرح هـذا الامر المهم الذي نتحدّثه في الترتيب السابق للعالم الّا بالخروج عن الحقيقة الوضعية ، وبالاقرار بتدخل ممّا وراء الطبيعة ، بالاقرار بفكرة سامية يكون الكون عملها. فيلزمنا اذاً اعتبار التطوّر العام نتيجةً لارادة تسمو عنّا بما لا نهاية لهُ ، وان تلك الارادة بدأت فأعطت الحركة للكون وظلّت تقوده في سبله المتشعّبة بواسطة الأسباب الثانوية.

واذا اعتبرنا هذه الاحتمالات امكننا التأكد أن قلقنـا عمّا وراء الطبيعة ليس بوهم خائب ، وان وراء هذه الحقيقة التي نلمسها وندركها حقيقةً اخرى . على ان رجل العلم لا يمكنه ، بطرقه العلمية وحدها ، ان يسير الى ابعد من هذه النقطة في التفتيش عن الكائن المطلق.

فهو رجلٌ مقيّدٌ بالمادّة ، دفعته الجرأة الى الاقتراب من الكائن غير المُدرك نُبذ طرفه ولمّا يزل ، فعاد موجساً من جرأته ، مقرّاً بصغره ، متواضعاً خاضعاً امام سرّ العالم وسرّ مصيره. على انه تأكّد حقيقة غير المحسوس ، ففهم سبب تعطّشه الشديد الى المعرفة والإدراك ، وتوّقه الحارّ الى عدنٍ جديدة لا يكون فيها من وجود الألم والموت والزمان . وهو ينتظر بطمأنينة ذاك اليوم القريب اذ يردّ جسمه الفاني الى حضن الطبيعة التي خرج منها ويشاهد ، وجهاً لوجه ، الحقيقة الازلية

ف. ا. ب.